ابن البيطار

لفؤاد عيناني

برع العرب في مختلف فروع الثقافة والعلم ولاسيما في الطب والفلك وكانوا قدوة للعلماء والاطباء في اوربا فأخذ هؤلاء عنهم مدنية الشرق واليونان . وكان للعرب نصيب وافر في انشاء الحضارة الاسلامية وبعث النهضة الفكرية وعتق الفكر من قيود الماضي والنهوض به الى اسمى مراتب الثقافة والتفكير الحر. ومن كان لهم أثر حميد في هذه النهضة العلمية الطبيب العربي الماهر والعشاب المدقق ضياء الدين بن البيطار الذي ساح في اقطار عديدة باحثاً متنقلاً فصادف كثيراً من المشاق والمصاعب في سبيل جمع النباتات النادرة الغريبة وترتيبها وتصنيفها ومعرفة فوائدها للاستفادة منها واستعمالها في الطب. وهو من اشهر من خدموا المدنية الاسلامية من ارباب العلم والفن فلم يسبقه أحد في علم النبات فكان اشهر العشابين وهو اللقب الذي كان يطلق على علماء النبات في تلك العصور الزاهرة (وكان ذكياً فطناً ثقة فيما ينقله وكان حجة واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه وصفاته واسمائه واماكنه لايجاري في ذلك)[1]

هو ضياء الدين ابو محمد عبدالله بن احمد المالقي النباتي المشهور ويعرف بابن البيطار . ولد في مدينة مالقة بالاندلس في اواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ويرجع بنسبه على الاكثر الى اسرة ابن البيطار التي استوطنت مالقة . درس علم النبات وفنونه على اكابر علماء عصره وكان استاذه في علم النبات ابو العباس النباتي [2] وجمع واياه نباتات كثيرة في ضواحي اشبيلية . ولما بلغ حوالي العشرين من عمره ورغب في زيادة الخبرة والمعرفة قصد الى شمالي افريقية ومراكش والجزائر وتونس فكان يبحث عن نباتات هذه البلاد ويقتني بجمعها ودرسها ويختار النباتات والاعشاب ويحققها ويبحث عن مواضع نباتها ونعت اسمائها على اختلافها وتنوعها . ورحل الى بلاد الاغارقة واقصى بلاد الروم واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن واخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه في مواضعه واجتمع في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات وعاين منابته وتحقق ماهيته . وظل مدة طويلة في ايطاليا وبلاد اليونان فاجتمع بعلماء الافرنج وباحثهم في النباتات والاعشاب وقد راجع كتاب (ديسقوريدس) العالم

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٤٠٢ (٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية وهو من اهل اشبيلية وسيجيء ترجمته في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٨١

المعروف النباب اليوناني وحقق أسماء النباتات وصحح الاسماء العربية وعنى بحثاً نقدياً (٣)

ولما عاد من أسفاره رحل الى مصر وكان حينئذٍ ملكها الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب فأعزه وأكرم وفادته ومثواه . وكان يعتمد عليه في المسائل النظرية والادوية المفردة والحشائش وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشابين وصحاب البساتين . وهذا مما يدلنا على مكانته الرفيعة في علم النبات وما حازه من ثقة وطيدة لدى ذلك الملك . ثم رافق الملك الكامل في رحلته الى الديار الشامية وهناك التقى بابن ابي اصيبعة صاحب كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء) فأدهشهُ وأعجب به اعجاباً عظيماً . وهذا حديث ابن ابي اصيبعة عنهُ وعن مقابلته لابن البيطار قال :

« أتقن (ابن البيطار) دراية كتاب ديسقوريدس اتقاناً بلغ فيه الى ان لا يكاد من يجربه فيما هو فيه وذلك اني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ما يتعجب منهُ . وأول اجتماعي به كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ورأيت ايضاً من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب اعراقه وجودة أخلاقه وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منهُ ولقد شاهدت معهُ في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه وقرأت عليه ايضاً تفسيره لاسماء أدوية كتاب ديسقوريدس فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً جداً وكنت أحضر لديه عدة من الكتب المؤلفة في الادوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وامثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن فكان يذكر أولاً ما قالهُ ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني ثم ما قد سمعهُ في بلاد الروم ثم يذكر جملاً مما قالهُ ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله ويذكر ايضاً ما قالهُ جالينوس فيه من نعته ومزاجه وأفعاله وما يتعلق بذلك ويذكر ايضاً جملاً من أقوال المتأخرين وما اختلفوا فيه ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته فكنت أراجع تلك الكتب معهُ ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها وأعجب من ذلك ايضاً انهُ كان يذكر دواء الاديمن في مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس وفي اي عدد هو من جملة الادوية المذكورة في تلك المقالة (٤)

كان ابن أبي اصيبعة تلميذاً لابن البيطار وقد رافقهُ في رحلاته وتلمذ له في صناعة الطب بدمشق . ولما توفي الملك الكامل بدمشق وتولى الملك الصالح نجم الدين ايوب ، عاد ابن البيطار الى مصر ودخل في خدمة ذلك الملك أحد بنيه وأكرمه وكان مقيماً عنده ملازماً في أيامه (٥) . وكانت وفاة ضياء الدين بن البيطار فجأة بدمشق في شهر شعبان سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

﴿ مؤلفاته ﴾ لما خرج ابن البيطار في رحلته العلمية جعل في أثناء سيره وأسفاره (بلاد الروم) باحثاً منقباً عن النباتات والاعشاب كان يقوم برحلته هذه كطبيب نباتي يجمع

(٣) قاموس الاعلام ش . سامي م ١ ص ٦٠٩ (٤) طبقات الاطباء — ج ٢ ص ١٣٣
(٥) طبقات الاطباء ج ٢ ص (١٣٣)

كثيراً من النباتات والعقاقير وأتحف العالم بكتابه المشهور « الجامع في الادوية المفردة » [٦] الذي صنفهُ للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل [٧] بعد رحلته الى مصر وبلاد اليونان وآسيا الصغرى [٨] . وهو كتاب فريد في بابه جليل الاثر عظيم الفائدة . وهو أهم ما كتب عن الادوية المفردة وهو عبارة عن معجم طبي او مجموعة مرتبة على الاحرف الهجائية، يشمل النبات والحيوان والمعادن وقد اعتمد في تأليفه على مؤلفي الروم والعرب وعلى تجاربه هو نفسه [٩] . (ووصف فيه اكثر من ١٤٠٠ دواء وعقار مما يستعمل في الطب وقابل ذلك مع تآليف ومصنفات اكثر من ١٥٠ من المؤلفين القدماء والعرب . والكتاب المذكور يتضمن ملاحظات دقيقة ويدل على براعة فائقة ومعرفة واسعة في هذا العلم . وهو اعظم كتاب عربي في علم النبات .) [١٠] (وقد استقصى فيه ذكر الادوية المفردة واسمائها وتحريرها وتواطأ ومنافعها وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه ، ولم يوجد في الادوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منهُ [١١]) . وهذا ما يقوله عنهُ ابن سعيد [١٢] في كتابه المغرب (حشر فيه ما جمع به فقدر عليه من تصانيف الادوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي الصقلي وغيرهما وضبطهُ على حروف المعجم وهو النهاية في مقصده .) [١٣]

وقد ترجم (لوكلير) [١٤] هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية وضمنه في المجموعة المسماة Notices & Extraits التي تولى نشرها مجمع المخطوطات والآداب . وكان غلان Galland قد ترجمهُ الى اللاتينية ولكنهُ لم يطبع ولا يزال محفوظاً في (المكتبة الوطنية) في باريس. وكانت مدارس الاندلس، كما يقول « لوكلير » تمتاز بصورة خاصة بدروس التاريخ الطبيعي ولا سيما ما يتعلق بالنباتات والعقاقير [١٥] . وله ايضاً (كتاب المغني في الادوية المفردة) — ويعرف بمفردات ابن البيطار — وهو بحث مختصر في الادوية ومرتب بحسب مداواة الاعضاء المريضة ، ومؤلف بالنظر لاستعمالها في الطب . وقد طبعت بعض اجزاء مفردات ابن البيطار باللغة اللاتينية في سنة ١٧٥٨ في مدينة قرمونة Cremona بايطاليا [١٦] . ومن اشهر مؤلفاته — (كتاب الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والاوهام) و (شرح ادوية كتاب ديسقوريدس) و (كتاب الانعال الغريبة و خواص الاشياء)

---

(٦) طبع في سنة ١٢٩١ هـ تحت عنوان (الكتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية) (٧) قاموس الاعلام م ١ ص ٦١٠ (٨) نيكلسون — تاريخ العرب الادبي ص ٤٣٤ (٩) دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الفرنسية) الكراس ٢٤ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ (١٠) تراث الاسلام ص ٣٣٩ (١١) طبقات الاطباء م ٢ ص ١٣٣ (١٢) هو ابن سعيد المغربي — ابو الحسن نور الدين علي بن موسى (٦١٠—٦٨٥ هـ) من عاظم أدباء الاندلس وشعرائها مؤلف (المغرب في حلى المغرب) و (المشرق في حلى المشرق) (١٣) راجع فتح الطيب م ٢ ص ٤٤ (١٤) Jean Leclerc بحاثة فرنسي — سويسري (١٦٥٧—١٧٣٦) وناشر المكتبة العمومية والتاريخية Bibliothèque universelle & historique في مدينة امستردام في ٢٥ مجلداً (١٦٨٦—١٦٩٣) (١٥) مفكرو الاسلام ج ٢ ص ٢٩١ Les Penseurs de l'Islam (١٦) تراث الاسلام ٣٥٣

الحلم الحائم

لحسن كامل الصيرفي

في اي أودية الخيال . بأي افلاك الجلال
طوّفتِ يا حُلماً يطوفُ عليّ في ساع البَالِ ؟

***

يا ليتَ للقلبِ الشُّوقِ جناحَ رُوحي او خيالي
لبطتُ فوق جفونكِ السُّكْرَى وريقاً من ظلالي
ولَمستُهُ بالطيفِ الجسلِ يَرُودُ أودية الجمالِ
لكنّ لي أسْراً من الرَّغباتِ تَوّارَ النضالِ
أنا فيهِ مشدودُ الوَثاقِ . فهل تُمكّنِ أعتقالي ؟